

التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

Education and the network of social relations with Malek ben Nabi

الدكتور سعودي مفتاح

جامعة سطيف 2 (الجزائر)، m.saoudi@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/02 تاريخ القبول: 2023/02/01 تاريخ النشر: 2023/03/05

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة نوعية، تكشف عن معالم نظرية تربوية في فكر مالك بن نبي. فالمتعمّن في كتابات مالك بن نبي الفكرية، التي تعالج مشكلات الحضارة، يتضح له جليا بأنّها كتابات في التربية بالمعنى العام للكلمة. فإذا كانت هذه الكتابات تدور في مجملها حول فكرة الحضارة ومشكلاتها، إذ أنّها تنطلق من الحضارة لكي تصل إليها فهي تبدأ بالحضارة لحصر هذه المشكلات لتنتهي إليها بغية إيجاد حلول لها، فإنّها تجعل من الإنسان . باعتباره كائنا اجتماعيًا . بيت القصيد في عملية التّغيير الذي يراد الوصول إليه، ما دام أنّه هو المطالب بإحداث هذا التّغيير الذي يستهدفه في نهاية المطاف، إذ تنعكس حصيلته الحضارية عليه في شكل ضمانات ماديّة ومعنويّة.

لقد كان الإنسان في كل مباحث فكر مالك بن نبي هو موضوع هذا التّغيير، بحيث تعمل التربية بدءا على تغيير نظريته إلى نفسه وإلى التاريخ، من المعنى القديري والسكوني إلى المعنى الإرادي والحركي. فعن طريق التربية إذن يرتقي الإنسان من حالة "الفرد" المرتبط بالنوع الإنساني إلى حالة "الشّخص" الذي يرتبط بالجماعة وبالإنسانية برؤيتها ليساهم من ثمّ في تطويرها وتحضّرها.

كلمات مفتاحية: تربية، شبكة، تغيير، علاقة، مجتمع

Abstract:

This study aims to provide an in-depth study that reveals the foundations of Malek ben Nabi's educational theory. When we look carefully at Malek ben Nabi's intellectual writings, which deal with the problems of civilization, we conclude that they are writings on education, in the true sense. And if the idea of civilization and its problems are based on education, then it starts from civilization to return to it.

In the thought of Malek ben Nabi, man was the basis for change, as education begins with changing his view of himself, then history, from the imposed imperative character to the moving voluntary character. Humanity, and the contributor to its development and urbanization.

Keywords: Education, network, change, relationship, community

*المؤلف المرسل: الدكتور سعودي مفتاح أستاذ محاضر جامعة سطيف2

1. مقدمة

إذا كانت التربية عملية اجتماعية مستمرة، هدفها الأسمى تشكيل وصياغة نموذج اجتماعي لمواطن مثالي وسوي، فإن هذا المواطن يشكل الركيزة الأساسية في بناء المشروع الاجتماعي . فاستقراء حوادث التاريخ المعاصر بينت لنا أن معظم التجارب التنموية في العالم الإسلامي، قد أثبتت فشلها على جميع الأصعدة السياسية والثقافية والاجتماعية. وذلك مرده إلى إهمالها وإغفالها دور الإنسان وأهميته في بلورتها، مع العلم أن أي نهضة لابد لها من أن تبدأ بتكوين رأس المال

عنوان المقال: التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

البشري، وإنتاج رأس المال المفاهيمي، واستثمار رأس المال المادي. حيث أولى مالك بن نبي أهمية بالغة لهذه العوالم الثلاث، معتبرا أن دور الإنسان فيها دورا محوريا، في عملية التغير الاجتماعي والبناء الحضاري، مفندا في ذلك بعض المشاريع النهضوية في العالم الإسلامي، فعلى سبيل المثال لا الحصر مشروع جمال الدين الأفغاني ومشروع محمد عبده، في مفهوم الإصلاح والأسس والمقومات التي يقوم عليها، وتأسيسه لمشروع نهضوي جديد قوامه دور التربية في تغيير الإنسان وبناء الحضارة، فكيف يمكن للتربية أن تساهم في تغير المجتمع والبناء الحضاري للمجتمعات؟ وما دور الإنسان والمجتمع فيها؟

2. مفهوم التربية عند مالك بن نبي

لقد اهتم الأستاذ مالك بن نبي كثيرا بمسألة التربية، لكونها عنصرا هاما في بناء المجتمع، وذلك انطلاقا من لبنتها الأساسية ألا وهو الفرد، حيث أن «...التربية هي عملية إنسانية سامية من أجل الإنسان، يجب الرفع من قدرتها، وإدراك خطورتها في المجتمع، فهي مصنع النفوس والشخصية، وباب للتقدم أو منحدر للتخلف» (أسعد السحمراني، 1986، ص 227) إنَّ التَّربيةَ المستهدفة هنا تخرج عن هذه الأطر المعهودة، وإن كانت المدرسة والتَّعليم جزءا منها. إنّها تربيةٌ نوعيّة تتعلّق بالإنسان، "إنسان ما بعد الحضارة"، وبوسطه الثَّقافي والاجتماعي.

فالتربية إذن هي العملية المقدسة التي تبدأ مع الإنسان منذ طفولته وتلازمه طيلة حياته، ولا تنتهي إلا بموته، ولذلك فهي المسؤول الوحيد على بلورة نوعية شخصية الإنسان، فإما أن تعلو به إلى درجة الإنسانية الحقة القائمة على استخدام العقل والنيل منه، والسير وفق أحكامه وبراهينه التي لا تحمل في طياتها تناقضا، وإما أن، تنحدر به إلى مرتبة الحيوانية المجردة من العقل والحكمة أو أخط منها.

ولقد اختلف الباحثون في تحديد مفهوم التربية، قديما وحديثا اختلافا كبيرا وذلك راجع بالأساس إلى اختلاف وجهات النظر بشأنها، وما حجم الدور الذي تؤديه في بناء المجتمع، والهدف منها فيه (رابح تركي، 1989، ص19)، ولعلنا لا نكون مخطئين إذا اعتبرنا الأستاذ مالك بن نبي من ابرز المفكرين في عصرنا الحالي، والمهتمين بقضايا الفكر الاجتماعي، لا سيما التربوي والإصلاحي منه ، وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي : كيف فهم الأستاذ مالك بن نبي التربية كبنية اجتماعية؟

لقد نظر الأستاذ مالك بن نبي إلى التربية من زاوية اجتماعية على أنها لا تعني إلا تلك العملية الاجتماعية واسعة المعالم ، التي تعمل على تنشئة الفرد اجتماعيا بما يحمله من قوة و فعالية في إمكانية التغيير للبنى الاجتماعية ذات الطابع الحضاري وتماشيه مع الواقع الذي تفرضه ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية . وفي ذلك يقول : «...التربية لا تعني شيئا إذا لم تكن . في الواقع وبما تحمل من معنى . وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود، نحو الأحسن دائما ، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح في المجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ .» (مالك بن نبي، ص100)

إذن فالتربية عند مالك بن نبي تمثل وسيلة فعالة في بناء وحفظ المجتمع وذلك بتكليف الإنسان وإعداده لكي يكون فردا صالحا في المجتمع ، يؤدي وظيفته على أتم وجه، محققا بذلك دوره المنوط به كعنصر فعال في شبكة العلاقات الاجتماعية و التي بدورها تحقق للمجتمع دوره في التاريخ . هذا الأخير الذي يعتبر المعيار الحقيقي لإثبات وجود الإنسان وتحقيق إنسانيته و تمييزه عن غيره من الموجودات الأخرى .

ومما يجدر بنا أن ننتبه إليه في مفهوم التربية في فكر الأستاذ مالك بن نبي أنها تربية نابعة من قيم وروح الدين الإسلامي الحنيف، حيث أنها تربية تتجاوز

عنوان المقال: التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

النظريات البيداغوجية المنحصرة في قضايا التعليم , بل أن سيمتها الأساسية تتجلى وبوضوح في شموليتها لقضايا المجتمع ككل كبنية إصلاحية, طابعها تقويي, فهي بذلك تربية إصلاحية بالدرجة الأولى جاءت كنتيجة لرفع التحدي عما خلفه الاستعمار في البلاد العربية والإسلامية عامة. وفي الجزائر خاصة من سداجة في الفهم وفساد في الخلق و اعوجاج في السلوك, حيث يهدف من ورائها إلى تقويم المجتمع وانتشاله من قبضة التخلف والانحطاط, بداية بتقويم التربية الإصلاحية ذاتها باعتبارها وسيلة أو منهج لأبد من تصحيحه وتقويمه وفق شروط المواطنة الصالحة, بما تحمله الكلمة من معنى , وما تنطوي عليه منهجية التقويم الاجتماعي و الأخلاقي متعددا بذلك حدود القراءة والكتابة و طرق التدريس وأساليب مسيرة الركب الحضاري. حيث يقول عن التربية في هذا الصدد: «إذ ليس الهدف منها أن نعلم الناس أن يقولوا ويكتبوا أشياء جميلة, ولكن الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه, أعني : أن نعلمه كيف يتحضر.» (المصدر السابق، ص99) حيث يظهر لنا جليا أن التربية عند مالك بن نبي تهتم أولا وقبل كل شيء بقضايا الواقع لا سيما العلاقات الاجتماعية بين الأفراد, و كيفية ترقيتها إلى مستوى أعلى, أي المستوى الدال على السلوك الإيجابي المعبر عن فعل التحضر . كما أن التربية «نضج وعقلانية في فهم الواقع و إعداد الأجيال و الالتزام بقيم حضارة نابعة من واقع العالم العربي و الإسلامي, ومن الإسلام الذي أعطى للمنطقة ولشعوبها دورا جديدا .» (اسعد السحمراني، 1986، ص229) فالتربية عند الأستاذ مالك بن نبي إذن لها ضوابط وميكانيزمات تضبطها حيث تتمثل على وجه التحديد لا الحصر في ضرورة الالتزام بقيم الحضارة الإسلامية وأخلاقياتها, وما تنطوي عليه هذه الأخيرة من مبادئ وقيم سامية وأخلاق عليا تتعدى حدود الزمان والمكان, وتتميز بالمطلقية والمعيارية , فهي إذن تربية أصيلة .

وعلى هذا الأساس نجد الأستاذ مالك بن نبي يرى بأنه يستوجب على المربين في البلاد العربية والإسلامية أن تعمل بكل ما في وسعها وبكل ما أوتيت من قوة على تعليم النشء كيفية مسابقة الركب الحضاري، وليس الأخذ فقط بما ينفع هذه الأمة من حضارة الغرب ومحاسنها وذلك في قوله: « فعلى المربين في البلاد العربية والإسلامية أن يعلموا الشبيبة كيف تستطيع أن تكتشف طريقا تنصدر فيه موكب الإنسانية، لا أن يعلموها كيف تواكب الروس أو الأمريكيين في طرائقهم، أو كيف تتبعهم؟ » (مالك بن نبي، 1984، ص118) وهنا تبرز فكرة أساسية وجوهرية ألا وهي ارتباط التربية بالثقافة، وهذا ما يفرض على كل شعب أصيل أن ينطلق في عملياته التربوية والإصلاحية من ثقافته الأصيلة، لا أن يأخذ الطرق والمناهج التربوية من ثقافات الشعوب الأخرى. ذلك أن الأمة العربية الإسلامية بدورها لها قيم وأخلاق تميزها عن غيرها، وعلى أساسها تقوم شبكة علاقاتها الاجتماعية، ومن الضروري أن تراعي في عملياتها التربوية هذه القيم والمبادئ والأخلاق. وفي هذا يقول مالك بن نبي: « فإذا ما تصورنا التربية الاجتماعية في نطاق هذه المصطلحات أمكننا أن نلخصها في كلمة واحدة وهي الثقافة. » (مالك بن نبي، ص 99)

يطابق ابن نبي بين التربية والثقافة إلى حد الاندماج في بعضهما البعض، غير أنه يتدارك ذلك بقوله: « هل هذا يكفي؟ لا لأن هذه الكلمة ذاتها قد تعرضت للتشويه و الابتذال نتيجة الاستعمال السيئ... فليست التربية مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء. » (مالك بن نبي، ص100) بل أن التربية هي ممارسة وفاعلية وقوة حيوية هدفها الأول والأخير هو التغيير إلى الأحسن، في مستوياتها الثلاث: الأشخاص، والأفكار، والأشياء. لأن الحقيقة التي لا تعتمد على هذا الثالوث الاجتماعي فهي حقيقة لا حياة فيها، ومحكوم عليها بالزوال والاندثار لا

عنوان المقال: التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

محال , وفي ذلك يقول « كل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي :الأشخاص, والأفكار, والأشياء هي حقيقة ميتة.» (مالك بن نبي، ص100)

فالتربية إن لم تؤد دورها التغييري , فهي أيضا حقيقة ميتة, فلا بد من تأثيرها على الأفراد, وذلك بتكييف سلوكاته إلى الأحسن حتى يتم لهم الانسجام في المجتمع بإيجاب وفاعلية . و على مستوى الأفكار بتنقيتها من كل الخرافات و الترهات القاتلة و المعيقة لكل تقدم, و التي تعتبر أثرا من آثار الاستعمار . ثم بتطويرها وتنميتها و الاستفادة منها في عملية التنمية و التقدم و مواكبة العصر . أما على مستوى الأشياء فيتجلى فعل التربية في توجيه قوى العقل إلى الاستفادة من الطبيعة و كنوزها من بترول ومعادن وبحار...الخ وذلك باستثمارها في مشاريع ومنجزات تواكب العصر . ومن خلال هذا كله يمكن أن نستنتج أن التربية عند مالك بن نبي تمثل وسيلة فعالة لتغيير الإنسان إلى الأحسن . وذلك بتعليمه كيف يحقق الانسجام و الفاعلية مع أفراد المجتمع, وكيف يشكل معهم شبكة العلاقات الاجتماعية على أساس التوافق و الوئام (الأخوة والمحبة). وهي تربية تهتم بكل قضايا و مسائل المجتمع, وهذا ما جسده حقيقة مؤلفاته . فهي كلها تتناول قضايا المجتمع العربي والإسلامي عامة والمجتمع الجزائري خاصة . وذلك في إطار فلسفة التاريخ, هادفا بذلك إلى تقويم هذه المجتمعات و تصويبها بذكر نقائصها وأسباب تقهقرها و تخلفها مستشهدا بوقائع التاريخ لأخذ العبر و المواعظ منه لكي تتجنب الأجيال اللاحقة أسباب التخلف و الانحطاط الذي وقعت فيه المجتمعات العربية والإسلامية . كما أنه كان قد طرح البديل, وذلك بالرجوع إلى الأصل الذي يتمثل في الإسلام, وكذا حسنات الغرب, غير أن السؤال الذي يطرح نفسه : هو كيف تجلى هذا الفهم للتربية في قضايا ومسائل الواقع الاجتماعي؟

3. دور التربية في إدماج الفرد في شبكة العلاقات الاجتماعية

إن أهم تجليات التربية يظهر في دورها، الذي تلعبه كحافز نحو الإصلاح وإرادة للتغيير، وذلك لا يتأتى إلا بدمج الفرد في شبكة العلاقات الاجتماعية . بمعنى أن أهم مظاهر التربية يتضح في قدرتها على توفير الشروط اللازمة على الفرد حتى يتسنى له الانسجام في المجتمع و التكيف معه . ذلك أن «...الطبيعة تأتي بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله، ليكيفه طبقاً لأهدافه الخاصة ...»(مالك بن نبي، ص65) وهذا ما يتناسب مع قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يلد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .» (أبي داود، ص229) . فهذه العملية التربوية المتمثلة في تكييف الفرد من قبل المجتمع يحصل هذا الخير على فرد يكون أهلاً لأخذ مكانة مرموقة في شبكة العلاقات الاجتماعية حتى يؤدي دوره كاملاً فيه . فالمجتمع في هاته العملية هو المسؤول على ذلك ابتداءً من الخلية الأولى فيه والمتمثلة في الأسرة، أو بالأحرى في الأم (المرأة) لتليها مباشرة المدرسة التي تنقل الفرد من الطابع الأسري البسيط إلى الطابع الاجتماعي المركب ، لكن السؤال الذي ينبغي طرحه هو : كيف تتم عملية التكيف والتشكيل هاته للفرد حتى يتم إدماجه في شبكة العلاقات الاجتماعية بما يناسب توجهات وأهداف المجتمع ؟

«... إن إدماج الفرد في شبكة العلاقات الاجتماعية عملية تنحية و في الوقت نفسه عملية انتقاء، و تتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم . بواسطة المدرسة . وذلك ما يسمى بالتربية » (مالك بن نبي، ص67)

إن العملية التربوية في المجتمع المنظم تتولاها المدرسة، فهي التي تعمل على تفريغ الطفل من محتوى الاستجابات الغريزية المتنافية مع قيم ومبادئ المجتمع، وفي الآن ذاته تقوم بشحنه بما يناسب مبادئها وأهدافها ، فتكون بذلك استجاباته وإنعكساته متزنة و معقلنة، ذلك أن الفرد في نظره مادة خام بيد المجتمع يعمل بها ما يشاء، ويوجهها حيث ما شاء لما يتمتع به هذا الأخير من سلطة إلزامية

عنوان المقال: التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

قهريّة لا يحق للفرد تجاوزها مهما كان الأمر، لأن أي تجاوز إنما في الحقيقة هو ضرب من التعسف و الفسخ، غير أن هذا المنطق لا ينطبق إلا على المجتمعات العريقة . « أما إذا كان المجتمع في طريق التكوين، فإن العملية تبدأ تلقائياً ...» . (مالك بن نبي، ص 67) حيث يستشهد على ذلك بشواهد من التاريخ الإسلامي للاستدلال على آرائه وذلك في قوله :« فجهاز الأفعال المنعكسة لدى رجل كالغزالي قد تكون في المدرسة، ولكنه لدى صحابي كأبي ذر الغفاري تكون تلقائياً . » (مالك بن نبي، ص 67) وفي هذا القول نجد الأستاذ مالك بن نبي قد لجأ إلى التعبير عن هذه العملية التربوية المتمثلة في كيفية تكون سلوك الفرد المتكيف و المتوافق مع مبادئ المجتمع . لدى كل من الغزالي و أبي ذر الغفاري بلغة علم النفس التربوي، ويضيف شارحاً قوله : « فالإطار النفسي في كلتا الحالتين واحد : إذ يجد الفرد نفسه متخيلاً عن عدد من الانعكاسات المنافية للزعة الاجتماعية ليكسب مكانها أخرى، أكثر توافقاً مع الحياة الاجتماعية.» (مالك بن نبي، ص 67) فعملية إدماج الفرد هاته في شبكة العلاقات الاجتماعية إذن هي في الحقيقة عملية تنحية وتكريس للتربية الاجتماعية التي من شأنها يصبح الفرد لا يعبأ ببعض المثيرات أو المنبهات ذات الطابع الفطري و الغريزي كسلوك بدائي كتلك الحمية التي تعتري المجتمع العربي في العصر الجاهلي و تدفعهم إلى سلوك الأخذ بالثأر ، كما أنها عملية انتقاء و إحساس تجعل الفرد من خلالها قابلاً للمنبهات ذات الطابع الأكثر سمواً، كما هو الشأن في الطابع الأخلاقي أو الجمالي الذي يعيش الفرد في فلكه . حيث تتم هذه العملية التربوية بإيعاز من الرغبة في التنحية والانتقاء وذلك على مستويات ثلاث : الأسرة باعتبارها اللبنة الأساسية في صقل مواهب الفرد العقلية والنفسية والروحية والجمالية، والمدرسة التي هي بمثابة الشكل المتطور للأسرة التي تعمل على إكمال ما خلفته الحياة الأسرية، والمحيط الاجتماعي الذي ينهل منه الفرد كل سلوكاته، والتي تمثل جزءاً لا يتجزأ من الإرادة العامة التي يعيش ضمنها .

3. 1. دور المرأة في العملية التربوية

إن مكانة المرأة في المجتمع ليست بالأمر الهين في فلسفة مالك بن نبي ، وذلك لما تلعبه من دور رئيس في بناء مجتمع متماسك و منسجم، حيث تعرض لدور المرأة في العملية التربوية من خلال تطرقه لمكانتها الأساسية في المجتمع كأم ، وما للأم من دور حيوي في عملية التربية بناء على ما يترتب عن غيابها أو انعدام وجودها داخل الأسرة، « فهي التي تنسج برعايتها و عاطفتها شبكة العلاقات القوية بين أفراد الأسرة ، وهي التي تزرع في الطفل قيما تبدأ مع أغانيها له في سرير الطفولة ...» (أسعد السحمراني، 1986، ص 320) وقد كان تركيز الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كبير عندما سئل عن بر الوالدين، على الأم : حيث قال أحد الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم من أحق الناس بصحبتى يا رسول الله ؟ قال : « أمك ، ثم أمك ، ثم أمك، ثم أبوك » (الامام أحمد، ص 327) فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الدور الرئيس الذي تلعبه الأم في الأسرة من بناء للأجيال و إعداد للأشخاص وإصلاح للإفراد، ذلك أن الأم مدرسة تهمل على يدها الأسرة كل القيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية، لأن الأسرة هي الخلية أو الأساس الذي يقوم عليه كيان أي مجتمع من المجتمعات لأنها البيئة الطبيعية الأولى التي يولد فيها الطفل و يكبر حتى يدرك شؤون الحياة ، ويشق طريقه فيها . وهذا ما يوحى بالضرورة أن محورها الأساسي الذي تدور عليه هو الأم أو المرأة، التي على أساسها يتطور المجتمع أو يتخلف، وفي هذا السياق يقول الأستاذ مالك بن نبي : « إن تطور المجتمع يرتبط فعلا بتطور المرأة و العكس صحيح ... » (مالك بن نبي، 1991، ص108)، وإذا كان تطور مجتمع من المجتمعات مرهون بتطور المرأة فهذا راجع بالأساس إلى الدور المنوط بها في النسيج الاجتماعي و المتمثل في تربية النشء وإعداد الأجيال التي على كاهلها يقوم أي مجتمع ويشق طريقه نحو التطور . الحقيقة أن الأستاذ مالك بن نبي ينظر إلى موضوع المرأة على أساس أنه مشكلة

عنوان المقال: التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

إنسانية يجب معالجتها والبحث فيها حيث يقول : « فإن مشكلة المرأة مشكلة إنسانية يتوقف على حلها تقدم المدينة ... فلئن كان الرجل قد أتى في مجال الفن والعلم بالمعجزات فإن المرأة قد كونت نوابغ الرجال ...» (مالك بن نبي، 1987، ص 125-126)

غير أن بن نبي حذر الأمة العربية والإسلامية من تلك المزالق التي هوت ببعض المجتمعات كالمجتمعات الأوروبية حينما أبعدت المرأة عن دورها الحقيقي والمتمثل في إدارة الأسرة والإشراف عليها، ورمت بها في أتون المصنع والمكتب، حيث الأخطار تحيط بأخلاقيها، ففقدت . وهي مخزن العواطف الإنسانية . الشعور بالعاطفة نحو الأسرة، وأصبحت بما ألقى عليها من متاعب العمل صورة مشوهة للرجل دون أن تبقى امرأة . وهذا ما أدى إلى حرمان المجتمع من هذا العنصر الأساسي في بناء صرح الأسرة وهو العنصر الأساسي فيها، حيث انعكست سلبياتها على المجتمعات الحديثة وكانت من نتائجها مشكلات من نوع جديد. أين تفككت الأسر، وتحطمت الروابط الأخلاقية والدينية، وأصبحت المرأة فرد عادي، بعيدا عن قدسية الأمومة. ومن خلال ذلك كان حرصه على المرأة العربية المسلمة بأن تعقد مؤتمرا خاصا بها تحدد من خلاله الدور المنوط بها، الذي يضمن لها صلاحها وصلاح المجتمع ، وفي هذا يقول : «وحبذا لو أن نساءنا يعقدن مؤتمرا عاما ، يحددن فيه مهمة المرأة بالنسبة لصلاح المجتمع حتى لا تكون ضحية جهلها ، وجهل الرجل بطبيعة دورها، فإن ذلك أجدى علينا من كلمات جوفاء ليس لها في منطق العلم مدلول .» (مالك بن نبي، 1987، ص 127) وهذه العملية التربوية للمرأة نلاحظ مساهمة الأسرة فعليا في إعداد الأجيال الصالحة، القادرة على تحمل المسؤولية، والقيام بدورها المنوط بها في التاريخ، لتكون قد ساهمت حقيقة في انتقاء أفراد لتمهد الطريق أمام المدرسة والمجتمع لإتمام ما تستحقه هاته القوى من مستلزمات فكرية واجتماعية ونهضوية .

2.3. دور المدرسة

تعتبر المدرسة العامل الثاني من عوامل التربية، بعد الأسرة إذ أنها المرحلة الوسطى بين مرحلة التربية والأسرة في المجتمع ، ولذلك فقد أولاهما الأستاذ مالك بن نبي أهمية بالغة الدرجة من خلال إعطائها بعدها الصحيح في العملية التربوية ، ولقد انطلق من رؤيته إلى هاته المؤسسة التربوية من زاوية نقدية إصلاحية، حيث يرى بأنه يجب علينا « ... ألا ننظر إليها من زاوية التجهيز كما ينظر إليها عادة، فالمدرسة ليست المكان المجهز بمقاعد وبما يكتب عليه ، و السبورة نكتب عليها الحروف الأبجدية، أو المعادلات الرياضية فحسب ...» (مالك بن نبي، 1988، ص 90) فهاته النظرة التقليدية للمدرسة في نظر الأستاذ مالك بن نبي قاصرة وغير وظيفية بل يجب تجاوزها لأنها لا تمثل إلا الشكل أو المبنى، بل يجب أن ننظر إليها قبل ذلك على أساس أنها «... المعبد الذي يستشعر فيه الضمير بالقيم التي تكون تراث الإنسانية ... فبقدر ما تستعيد المدرسة معناها الأصيل تستطيع القيام بدورها الثقافي، و بالتالي دورها السياسي، إذ السياسة حينئذ تكسب بعدا وطنيا وعالميا يفضل ما تهب لها الثقافة من تفتح على القيم التي اكتسبها الفكر الإنساني عبر الآلاف من السنين . » (مالك بن نبي، 1988، ص 90) .

إذن هذا هو المفهوم الصحيح الذي يجب أن ينظر إلى المدرسة من خلاله، فهي المكان المقدس الذي تمحى فيه ظلمات الجهل ، وتستنير فيه الضمائر بالقيم العالية ، والعلوم النافعة . كما أنها مصدر الإشعاع الثقافي و الوعي السياسي، ففيها ترسخ المعاني السامية تجاه الوطن كوطن، والعالم كعالم ، وفيها أيضا يدرك الفرد أصالته و انتمائه الحضاري المتمثل في الحضارة والثقافة الإسلاميتين . وتتحدد قيمة المدرسة « ... بالقواعد الفكرية التي تحكم المنهج التربوي ...» (اسعد السحمراني، 1986، ص 227) هذه القواعد التي يجب أن تكون سليمة من الأفكار الشاذة و المشوهة ، بمعنى يجب أن تكون هذه القواعد متماشية أو صادرة عن

عنوان المقال: التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

القيم و الأخلاق الإسلامية الصحيحة لأن الأخلاق هي العمود الفقري لأي عمل أو خطة تربوية يكتب لها تحقيق النجاح والازدهار .

ولعظم شأن الأخلاق في العملية التربوية , وصف الله تعالى رسوله الكريم . صلى الله عليه وسلم . بالخلق العظيم وذلك لأنه في شخصية ستكون الأسوة الحسنة للأجيال على مر التاريخ , وفي ذلك قوله تعالى : >> وإنك لعلى خلق عظيم << سورة القلم الآية 4 . ولقد كان الأستاذ مالك بن نبي واعيا جيدا لمشكلة انحطاط الأمة العربية الإسلامية, التي رضخت تحت نير الاستعمار فترة ليست باليسيرة, لذلك نجده يركز على دور المدرسة من الناحية العلمية على العلوم الأخلاقية والاجتماعية لما لها صلة وارتباط وثيق, ومباشر بقضايا الإنسان العربي مسلم الثقافية والحضارية, وفي هذا الشأن يرى أن العلوم الأخلاقية والاجتماعية و النفسية تعد اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية, فهذه تعتبر خطرا في مجتمع مازال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم ومعرفة إنسان الحضارة وإعداده أشق كثيرا من صنع محرك أو صنع ماكينة أو ترويض فرد على استخدام رباط عنق . ويعلق الدكتور اسعد السحمراني على ذلك قائلا : «... بهذه الوقفة يحاول مالك بن نبي إظهار حقيقة التربية, لمن اعتقدوها نقلا لبعض الشكليات و الأشياء عن الغرب , علما انه قبل استراد المحرك أو الزي , علينا أن نرى الإنسان الذي سيقوم باستخدامه , حتى لا يستورده مع الثقافة الأوروبية, فيستعملها فيما يرضيها...» (اسعد السحمراني, 1986, ص 228) بهذه الرؤية كان يرى مالك بن نبي الأولوية في تحصيل المعارف والعلوم في العملية التربوية و كيفية الاستفادة منها, حيث لا يتوقف عند هذا الحد في نقده وتوجيهه للمدرسة في عملها التربوي, بل يذهب إلى توضيح أهميتها أكثر في تعليمنا بأن ليس هناك شيء في الواقع صعب, مستحيل حله كما أنه ليس هناك أمر سهل يستهان به, وذلك في قوله : « فمهمة تربيتنا الشعبية والمدرسية إنما تتمثل في تبصيرها لنا, لان ليس هناك شيء سهل , ولا

شيء مستحيل، وإنما لكل مشكلة واقعية حلها الذي تنحصر القضية في تطبيقه بالجهد الذي يستلزمه . لقد آن الأوان لكي تتحرر من جميع ضروب العطالة التي توقف الجهد ، وسائر أعدار العطالة التي تبرر كسلنا.» (مالك بن نبي، 1991، ص 189-190) إذن فالمدرسة تعلمنا كيف نتحرر من الأوهام والأغلال، ومن كل ضروب العطالة التي تبرر التقاعس ولتماطل ، فالمدرسة مؤسسة حيوية يغمرها الجد و النشاط وهي فعلا تحارب شتى ضروب العطالة و شتى أنواع الجهل . حيث بدورها هذا تسهم في عملية إدماج الفرد في شبكة العلاقات الاجتماعية بكل نجاح، وبالتالي تكون قد ساهمت في عملية تطبيع الأفراد بطابع المجتمع وتنشئتهم تنشئة اجتماعية على أساسها يؤدي الفرد دوره المنوط به في التاريخ .

3.3. دور المحيط الاجتماعي

إن البيئة الاجتماعية وما يسودها من معتقدات وقيم وأفكار، والتي تشكل في مجموعها ثقافة، لها دور أساسي في تكوين شخصية الإنسان، وفي تحديد نوعيتها، وهذه العملية تتم تدريجيا بواسطة التربية أو ما يسمى بالتنشئة الاجتماعية .

وبما أن الثقافة هي الروح التي بها يقوم المحيط الاجتماعي، فإن سلوكات الأشخاص في البيئة الاجتماعية صادرة عنها، ومنها يستمدون مثلهم التي يعملون جهد أنفسهم على تجسيدها كسلوك مشاهد وملموس بينهم، ولا شك في أن هذا يتم عن طريق عملية التربية الاجتماعية وفي هذا الشأن يقول الأستاذ مالك بن نبي: «فالبيئة تعد إذن بمثابة الرحم إلى القيم الثقافية ... فهي بيئة تمارس مفعولها على الراعي وعلى العالم على السواء وهي الوسط الذي يتشكل داخلهم الكيان النفسي للفرد، بنفس الصورة التي يتم تشكل كيانه العضوي داخل المجال الحيوي الذي تنتظمه.» (مالك بن نبي، 1991، ص 125) فالثقافة لها علاقة وطيدة بالمحيط الاجتماعي، لذلك قد أولاه أهمية كبرى، حيث سعى إلى ترقية هذه الثقافة بتصفيتها من العوامل البالية الفاسدة التي يجب على الإنسان السوي

عنوان المقال: التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

تجنبها والابتعاد عنها قدر المستطاع، لأنها لا تدفعه إلى الأمام بل إلى الوراء دائما ، حيث يقول : «ومن أول واجباتنا تصفية عاداتنا و تقاليدنا و إطارنا الخلقي الاجتماعي مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها، حتى يصف الجوول للعوامل الحية و الداعية إلى الحياة .» (مالك بن نبي، 1984، ص 71) وهذا من اجل النمو بمستوى الأفراد ورفعته إلى درجات عالية من السلوك تؤهلهم إلى بلوغ السلوك الحضاري، وذلك لان الثقافة بدورها هي التي تجعل من الفرد فردا وتبرئ له المناخ الصلب على مستويات مختلفة صحية كانت أم اجتماعية أم تربوية، لكي تقوم فيها ذات الإنسان للفرد، وعندها سيكون هذا الإنسان الجديد من أحد صناعات الحضارة في المستقبل، وهذا يعني أن الثقافة هي العامل المغذي للمحيط الاجتماعي، ومن خلالها يكتسب طابعها المميز، و الذي بدوره يستمد منه الأفراد جميع قيمهم و أخلاقهم، وبالتالي سلوكهم، فيتميزون عن غيرهم من أبناء الثقافات الاجتماعية الأخرى .

وبما أن المحيط الاجتماعي يحض بهاته المكانة الحساسة، لما له من دور رئيس و خطير في عملية تكوين الأجيال و تنشئتهم على شاكلته و طبيعته، فتنشأ أجياله على النمط الثقافي، ولذلك بات من الواجب والضروري على أمتنا الإسلامية أن ترعى هذا المحيط، و تحرسه من أيادي الدس الخفية و كذا من سموم الثقافات المائعة ، التي كثرت قنواتها في عصرنا هذا، ولنا في التاريخ عبرة حيث لما عجز الغزو الصليبي في اجتياح الدول العربية والإسلامية في مطلع القرن الثاني عشر للميلاد بالطريقة العسكرية لجأ إلى وسيلة أخرى في القرن السادس عشر هي أشد فتكا وأعظم خطرا ، هي الغزو الثقافي والاقتصادي مصحوب بالغزو العسكري وحملات التبشير عبر المدارس . مما أدى بمجتمعنا العربي والإسلامي إلى الانحطاط والتخلف وإلى فساد الأخلاق والسلوك . (اسعد السحمراني، 1986، ص 206)

4 . التربية كعامل من عوامل التحضر

من غير شك أن فكرة الحضارة في فكر الأستاذ مالك بن نبي تعتبر الفكرة الجوهرية أو المحورية التي تمحورت حولها كل أفكاره الفلسفية الاجتماعية . ولذلك جاءت معظم كتبه متضمنة هذا الموضوع، بل حاملة طابع مشكلات الحضارة لكن السؤال الذي يطرح نفسه : أين نلمس دور التربية في عملية التحضر عند مالك بن نبي ؟

ربما لا نكون مخطئين عندما نقول أن الأستاذ مالك بن نبي داعية حضارة على أسس علمية، ذلك لأنه كان يسعى جاهدا بكل ما أوتي من قوة فكرية للوصول إلى تصميم مخطط صحيح لكيفية بناء حضارة إنسانية تحمل روح الثقافة الإسلامية بما تضمنته من قيم سامية، فتكرس العدالة و المساواة و تحي الروح الإنسانية التي فقدت وجودها في الحضارة الغربية المادية، والتي قامت على أسس القهر والاستعمار واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان بتجريده من حريته و من كل ما يثبت إنسانيته .

لقد كان بن نبي دائم التفكير والتأمل في الكيفية التي يستنهض بها همم بني جنسه من العرب والمسلمين الذين أصيبوا بسوط عذاب الاستعمار، وما جره عليهم من قهر واستعباد و تجهيل وتخلف و فساد في السلوك . ولذلك كان يبحث عن الطرق و الوسائل التي يمكن بها انتشالهم مما هم فيه، فكان يسعى إلى تشخيص أمراضهم ، و إعداد لكل مرض ما يناسبه من دواء، وكانت علة العلل في نظره ، والتي أقعدت أمته على النهوض، هي علة السقوط الحضاري ، فكان يبحث جاهدا في الكيفية التي يسخر بها قوى و جهود أمته العربية والإسلامية ، العاطلة الضائعة، في بناء حضارة إنسانية راقية، تنهض على مبادئ وقيم الإسلام . وكانت أهم الوسائل التي اعتمد عليها لبلوغ ذلك التأليف أ الكتابة، وإلقاء المحاضرات، وفي كليهما كان يشرح و يوضح عوامل الفشل و السقوط ، والكيفية التي يجب بها تفاديها، مبرزاً عوامل النجاح و النهوض و كيفية اكتسابها وبلوغها، وهذا

عنوان المقال: التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

بالاستشهاد بالتاريخ ووقائعه الماضية، وكذا الحاضر و مستجداته ، فكان بهذه التوجيهات يمارس بالفعل دورا تربويا وإصلاحيا في الآن نفسه .

ومن أهم توجيهاته الداعي إلى كيفية بناء الحضارة قوله : « ... فالواجب أن نتجنب الطرق، الطويلة طرق الاعتبار والاستهواء، الطرق التي سلمتها الحضارات التي كان أمامها ما يكفيها من القرون وآلاف السنين ... » (مالك بن نبي، 1992، ص 157) وفي هذا توجيهه إلى كيفية الحفاظ على الوقت و استثماره في بناء الحضارة وكيفية اختصار الجهود والاستفادة من تراث الغير ومن عبقريته التي تعتبر ثمرة آلاف السنين، لكن هذا لا يعني أخذ كل ما للغير وذلك لأنه لكل ثقافة نمط خاص ومبادئ خاصة التي تقوم عليها . فالحقيقة تكمن في توجيه أفكارنا نحن أبناء الأمة العربية والإسلامية إلى الحضارة وكيفية بنائها حيث يقول بن نبي في هذا الصدد : « ... وبلغة التربية يجب أن نطبق الطرق التي توجه الذكاء في اتجاه الحضارة، و التي تجعل تكوينها طبقا لتطورات الأزمنة في نطاق هذه الحضارة ... » (مالك بن نبي، 1992، ص 157)

إن الأستاذ بن نبي ينهنا إلى البحث عن طرق تربوية من خلالها يمكن الوصول إلى كيفية يمكن من خلالها توجيه قدرات الأفراد العقلية في اتجاه الحضارة، وكيفية بنائها بما يناسب المستجدات والتطورات الحادثة في هاته الحضارة، حيث أن مشكلة الحضارة تتصل بإعادة البنية في العوالم الثلاث الأشخاص والأفكار والأشياء، حيث لا يمكن ذلك بمعزل عن العملية التربوية .

5. خاتمة

إن ما يمكن التوصل إليه من خلال ما تم تحليله، هو أن التربية عند مالك بن نبي هي عملية اجتماعية مستمرة، تهدف إلى تشكيل وصياغة المواطن المثالي والسوي، وقد حظيت بأهمية كبيرة عند المفكر مالك بن نبي، وتقوم فلسفة التربية عند هذا المفكر بنقل ثقافة المجتمع لأفراده، وبعملية التغيير الاجتماعي والبناء

الحضاري، وقد حدد شروط هذا التغيير والبناء في مبادئ أربعة متمثلة في المبدأ الأخلاقي والمبدأ الجمالي والمنطق العملي والعلم أو الصناعة، وتتميز هذه المبادئ بالفعالية والتكامل، وتشكل في أبعادها وأهدافها نظاما تربويا واجتماعيا يسهم في إعادة البناء الحضاري للعالم الإسلامي. وعليه يمكن القول، بأنه إذا أراد أي مجتمع بلورة نظرية حقيقية في التربية لتجاوز إنسان ما بعد الموحدين، نكون عندئذ قد أدركنا دور التربية في البناء الحضاري للمجتمعات ووعينا بعمق خطورة التربية النبوية ودورها التَّحْضُرِيّ. ما دامت الثَّقافة هنا قد تحوَّلت في عصرنا المعاصر بفعل التربية من نظرية في المعرفة إلى نظرية في السلوك أمّا إذا كان غير ذلك، فهذا معناه بأنّ إنسان ما بعد الموحدين ما زال قابعا فينا أو ما زلنا قابعين فيه، وما أحوجنا عندئذ لتربية بنّوية لإخراجه منّا أو للخروج منه، ولإبعاده عنّا والابتعاد عنه.

لقد كان مالك بن نبي، كما هو معروف لدى من اطّلع على فكره، صاحب مشروع نهضويّ حقيقيّ ومتكامل. وهو يرسم لمشروعه هذا كغاية إقامة حضارة. حضارة تحصّن الأمة من ويلات الأمم الأخرى، وينعم أبنائها في كنفها بالأمن والحرية والعدل والمساواة من خلال توقّر الإمكانات التي تسمح لهم بالتعبير عن ذواتهم وقدراتهم. هذا الواقع الغائب، أي هذه الحضارة الغائبة هي الدافع إلى التفكير في مشكلاتها، بغية إقامتها. وغيب الحضارة ما هو إلّا غياب لرأس مالها، أي لإنسانها. وعليه، فكلّ سعيّ في سبيل إقامتها هو سعيّ في سبيل تجسيد حضور هذا الإنسان المتخلّف عن التّاريخ، وإنّ إقامتها هو تجسيد لحضوره فيه. وغيب إنسان الحضارة عن التّاريخ ومشاركته الفاعلة في صنع أحداثه، هو خروجه عن إطارها وغربته عنها، وعن ديناميكية التّاريخ الإنسانيّ، باعتباره إنسانا غير مؤهلّ. من هنا كانت كلّ رغبة في الاندماج من جديد في حركة التّاريخ تقتضي بالضرورة إعادة تأهيل هذا الإنسان. وإعادة التّأهيل هذه لا يمكن أن يُفكّر فيها بمنأى عن

عنوان المقال: التربية وشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي

التربية. إنه لكي نتمكن من إدراك ذلك يجب، قبل كل شيء، أن نتحرر من تلك الفكرة المستقرة في أذهاننا، والتي تربط التربية بالطفل وبالمؤسسة التعليمية وما لحق بها من برامج وطرق ووسائل، وما إلى ذلك.

المصادر والمراجع

1. أبي داود. سنن أبي داود، ج 4، دار الفكر.
2. أسعد السحمراني. (1986). مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، (ط2). بيروت: دار النفائس.
3. الإمام أحمد. مسند الإمام أحمد، ج 2، دار الفكر.
4. رايح تركي. (1989). أصول التربية والتعليم (ط2). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
5. مالك بن نبي. (1991). آفاق جزائرية، ترجمة: الطيب الشريف. الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية.
6. مالك بن نبي. (1988). بين الرشاد والتهيه، ترجمة: عمر كامل مسقاوي. (ط2). الجزائر: دار الفكر الجزائري.
7. مالك بن نبي. (1987). شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين (ط4). الجزائر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
8. مالك بن نبي. (1992). فكرة الافروآسيوية، ترجمة: عبد الصبور شاهين (ط3). الجزائر: دار الفكر.
9. مالك بن نبي. (1991). في مهب المعركة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي (ط1). الجزائر: دار الفكر.

اسم ولقب المؤلف : الدكتور سعودي مفتاح

10. مالك بن نبي . (1984). مشكلة الثقافة, ترجمة: عبد الصبور شاهين

(ط4). الجزائر: دار الفكر.

11. مالك بن نبي. ميلاد مجتمع, ترجمة: عبد الصبور شاهين (ط3).

الجزائر: دار الفكر.